ـ ... ؟

اسمي ؟

(من الضروري ان نكرر المأساة من جديد ؟)

.. احمد

احمد فوزية . حتما .

ـ .....

ارجوك . لا تقاطعني يا سيدي القاضي . لم انت عجل الى هذا الحد؟!

(العجلة من الشيطان)

ـ... !!

لاتحملق بوجهي وتكثر من الاسئلة ، انني انزعج بسرعة . دعني اتكلم سأحدثك بقصة هذا الاسم .. قصة حياتي وقصة الجريمة بآن واحد .

***

كيف اتحدث ؟ والخيطان مشتبكة براسي .. كلما سللت خيطا، اشتبك بغيره من الخيوط او انقطع في يدي .

(الصعوبة في البداية)

اعذروني اذا لم اسلسل الحديث ، فالحوادث قديمة جدا ، والذاكرة .. غير طيعة كما تعلمون .

اف ...

بودي لو اساعدكم لتنتهي بسرعة . لكنني متعب جدا (لاتنسوا انني اقترفت جريمة) ... ومع ذلك سأبذل جهدي وافرز الحوادث حسب ترتيبها الزمني .

***

كانت امي خادمة ،

افي ذلك شيء يا سيدي القاضي ؟

... تشتغل لتعيش . نحن الفقراء مساكين . نضطر في سبيل لقمة العيش ان نقوم باعمال كهذه .

وماذا كان يمكنها ان تعمل غير ذلك ؟!

كانت امها غسالة . وابوها ـ رحمة الله عليه ـ كان اجيرا كذلك . وكان ـ كما حدثتني ـ رجلا طيبا .

ـ ... !!

اي مانع في ذلك ؟ لانه فقير ؟

(في الفقراء احيانا جماعة طيبون)

انا خجل يا سادة .. ربما تظنون انني اقلد الافلام . منذ لحظة قلت لكم ان اباها : « رحمة الله عليه » واقول لكم الان ، ان امها توفيت بعده . (انني لا اخلق شيئا من عندي) بعدسنة تقريبا . فاصبحت بموتهما ـ تلك التي اضحت فيما بعد امي ـ وحيدة .

كان عمرها في ذلك الحين اربعة عشر عاما . ربما اكثر او اقل . (ان امي لا تعرف عمرها بالضبط) . كيف تعيش ، والحياة ـ لا يخفى على حضراتكم ـ صعبة في هذه الايام ؟ وابواها لم يتركا لها شيئا ، والشوارع ملأى بالذئاب التي تتربص في الظلمة .

.....

لا داعي للضحك . اتقبل انت يا سيدي القاضي ؟

واضطرت للخدمة في احد البيوت . وكان سيدها رجلا متزوجا ... وهو من اسرة غنية (الفقراء سلم للاغنياء) والنساء في عصرنا هذا لا يمكثن طويلا في بيوتهن : النزهة ،والخياطة ، والسينما ، وزيارةالصديقات .. الف عذر للخروج . وتخرج الزوجة ، وتظل فوزية (امي فيما بعد) وحدها في البيت.

(اتسمع جيدا ؟ هه ..هه . وحدها في البيت !!)

ويحضر سيدها في غياب زوجته .. !! من يدري ان كان يتعمد الحضور ؟

ويصيح : قهوة يا فوزية . سيكارة يا فوزية . ماء يا فوزية . اذهبي يا فوزية . تعالي يا فوزية . وتمتثل للامر فوزية . ويربت على خدها مبديا رضاءه .. ويضاحكها !! والزمن طويل يا فوزية .. والرجل هو الرجل ، وطبيعة المرأة لا تتغير .

وظلت خادما اربع سنوات . من يعرف ما حدث خلال هذه المدة ؟ لاانا ولا انت يا سيدي. الله وحده يعلم !! افترض نفسك ـ لا سمح الله ـ مكانه ، ماذا كنت تفعل .. وفوزية تتفتح امام عينيك كالوردة ، وتنضج كالثمرة ؟

لا فائدة يا سيدي القاضي . كيف تحتاط للامر ، والنهاية ـ ولا احب ان اطيل الحديث ـ واضحة ومحتومة ؟

« ع تابع ل س » فالرجل خبير ، والمرأة تتبع الرجل . وفوزية غريرة وثائرة .. والبنت في هذه المرحلة الخطيرة من العمر ، تستجيب لاول لمسة . من يستطيع ان يمنعها من الانزلاق ؟ وتنزلق فوزية .. ويدخل اسمها في التاريخ !!

كانت ...

***

البذرة لا تموت ..

وفوزية تغتذي جيدا وتنام في مكان مريح . اين حياتها الماضية ؟ وتمضي اشهر قليلة ، فتنمو البذرة (انا يا سيدي) .. وتعلن عن نفسها بجرأة بالغة . وتهرع المسكينة الى سيدها ، (فات الاوان) يا فوزية .. ويقول لها رافعا كتفيه بلا اكتراث :سافتش لك عن طبيب ليجهضك.

وتصيح ، ـ ولامبرر للخوض في التفاصيل ـ : تجهضني ؟! جريمة .. طفلي .. انني اريده .

(لا جدوى من الصياح يا فوزية)

نحن الفقراء مساكين ، ماذا تستطيع ان تفعل ؟ وتعوي بوجهه وتصرخ . فيعطيها مبلغا من المال ، ويتعهد نفقات الطفل دون ان يعترف به . وتخرج فوزية ، ذليلة .. تحمل العار والخطيئة .

هه .. هه .. ها !!

كانت ...

***

ما اعظم جهلكم .

الا تعرفون شيئا عن طفولتي ؟ طفولة انسان بلا اسم !

هه .. هه ..

لقد تعذبت ، وعشت محروما من العطف والحنان . وكانت المرحومة (امي) تضربني كل يوم لابسط الاسباب . فاذا لم تجد مبررا لضربي ، اختلقت لي من الاسباب ما يستوجب الضرب . كانت تسألني اسئلة عديدة .. بلا غرض او فائدة !! قصدها فقط ان تعكر علي حياتي .

لاتظنوا انني كنت اشترك معها في الحديث . كانت تسالني وتجيب بنفسها على الاسئلة . كانت تقول : « انا اعرف انه لا يعجبك » .« ماذا تريد اذن ؟ » .« تكلم يا قرد » .. وتنهال علي بالضرب في قسوة ،وتنطلق من فمها شتائم غريبة .

اما هذا الشيء الذي « لايعجبني » ، فالله وحده يعلم ما هو يا سيدي. وانني اقسم باعظم الالهة .. بانني ما طلبت شيئا ، ولا شكوت من شيء على الاطلاق .

(دون هذا لصالحي يا حضرة القاضي ، ساحاسبك به فيما بعد)

معذورة امي ، كنت الوحيد الذي تستطيع ان تصب سخطها وغضبها عليه .

انا مسؤول يا سادة ؟!

كانت تقول لي دائما : ابوك .. ابوك .. !!

واحملق مذعورا في ارجاء البيت ... وافتش عبثا عن ذلك الانسان الخرافي الذي اسمه : « ابوك » ، ذلك المخلوق الذي اسمع به ولا اراه . وعندما تكررت خيبتي في العثور عليه ، بدا الامر يلتاث علي .. واشتبكت من يومها الخيوط .

***

... ودخلت المدرسة ،

ـ .... !!!

ايه . !! من الغريب ان ادخل المدرسة ؟!

...تلميذ كبقية التلاميذ . وظللت سنين ، وتعلمت اشياء كثيرة : عن التاريخ والهندسة ، وروما .. ونيرون الذي قتل امه .

هه .. هه .. (التاريخ يعيد نفسه)

وكان في المدرسة طلاب كثيرون .. بعضهم اغنياء، والاخرون فقراء . لكن لو سألتم اي طالب عن اسمه ، من ابوه .. لاجابكم دون خجل او خوف .. لا على التعيين .

انا ؟! هه ...

احمد ..

احمد من ؟ .. احمو فوزية ، حتما .

هل سمعتم مثل هذه المهزلة ؟

عندما وقفت بين يديك يا سيدي ، اول ما سالتني عن اسمي . (اسمي يتحدث عن نفسه) وقلت لك : احمد .. وسكت . قلت لي : احمد من؟

احمد .. احمد فوزية ..

وابتسمت قليلا يا محترم . كانك ظننتني امزح . ابتسمت رغم انه لا يحق لك الابتسام . احتراما للمنصب على الاقل . كيف لو كنت ـ لا سمح الله ـ مكاني ؟ ماذا كنت تفعل ؟ ودائما يخترق اذنيك ، وفي كل مكان : في البيت ، والمدرسة ، والشارع ، وفي الاحلام ... دائما يخترق اذنيك هذا الاسم ، لعنتي الابدية : احمد .! احمد ...

وبعد ذلك تسالني لماذا قتلت ؟!

من منا يحب ان يرتكب جريمة باختياره ؟ لكم وددت لو تزول فكرة القتل من راسي ، لكن كيف اعمل ؟ والجذور عميقة في النفس ،والاشياء التي تدخل الراس وتعشش فيه ، ضمن الذرات الدقيقة ، يقفل عليها الى الابد .. مفتاحها الجريمة .

(البذرة لا تموت)

***

ـ .... !!

تقولون مضى زمن طويل ؟! وانه كان يجب علي ان اعتاد هذا الامر ، وانسى التفكير في الجريمة !!

انني خجل من فهمكم يا سادة . فالزمن سلاح ذو حدين . لقد ترسب كل شيء خلال السنوات ، وتراكم ... بعضه فوق بعض .

الا تعرفون شيئا عن الماء .. الماء الذي يتجمع شيئا بعد شيء ، ثم يكتسح اعظم السدود ؟

هل « اخربط » في الحديث ؟

تأكدوا من انني لا اريد ان اقدم لكم عذرا التمس به تخفيف العقوبة . انني استحق العقاب ، واشنقوني اذا اردتم . اريد فقط ان اوضح الامر ، لتكونوا على معرفة دقيقة بالجريمة ، ولازيل من راسكم كل فكرة عن جنوني .

لقد فكرت فيها طويلا ، وعزمت منذ اماد بعيدة . لقد سرت في دمي .. مع كرياته الدقيقة . عشر سنوات والحقد يلح علي .. وانا امنع النفس واحبس شهوة القتل .

ـ .... ؟

هه ..! كنت صغيرا ذلك الحين .

(لا تؤجل عمل اليوم الى غد !!)

مجنون هو الذي قال هذا الكلام . ماذا لو انتظرت ؟ كل شيء له زمانه المحدود . وانتظرت يا سادة .. حتى اذا ازف الوقت ، ورأيتهما معا .. تقوض السد واندفق الماء الحبيس .

ماذا تظنون بين العقل والجنون ؟ غشاء كنسيج العنكبوت .

(لقد تمزق الغشاء يا سادة)

نعم ...

بهذه السكين التي امامك قتلت امي . قتلتهما .. وضربت بكل شيء عرض الحائط كما تقولون : بالتقاليد والاخلاق والدين !!

اتسمعونني جيدا ؟

دون هذا الاعتراف يا حضرة القاضي ، وسجل معه انني عاق . ان امي لم يطاوعها قلبها على قتلي وانا جنين . انا فعلت ذلك .

(ابرة الميزان تميل)

✶✶✶

ـ ... ؟

لماذا قتلتهما معا ؟ وتسأل ؟! هه ..هه ..

هما شريكان في الجريمة . الاثنان .

لم اقتلهما . قتلت فيها العار ، وقتلت فيه النذالة . قتلت فيهما نظرات الناس الي ، والغمز كلما مررت ، والتصفيق ورائي .. وصراخهم : احمد ، احمد . هذا الذي قتلت .

صدقوا انني كنت اكتفي بقتله فقط ،.واصفع لها عن زلة قديمة . لست ديانا حتى احاسبها . من منا لم يخطيء ؟

« من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر »

اعرف ذلك ..

لكن انت يا حضرة القاضي ، هل تصدق انها ظلت تجتمع بـــه .. وتجتمع مرارا .. حتى بعد ان كبرت ؟

احمد .. احمد فوزية .

✶✶✶

انظروا جيدا الي ..

أنا انسان قميء ، وهيئتي تستثير الضحك ، اضحكوا جهرة يا سادة لن الومكم ، ان شكلي مضحك فعلا . فقد كانوا في المدرسة يتنـدرون علي ، ويروون عني طرائف غريبة .

سألتني عن اسمي ، وعمري ، وكيف ولماذا قتلت. يكفي هذا ؟ ! سلني لماذا أنا قميء .

هه .. انك معذور يا سيدي . لو كنت مكاني ، عرفت .

عندما كنت جنينا ، حاولت امي ان تخفي حملها عن الاعين . تخفيني انا . وكنت أتضخم باستمرار . (أنا عنيد جدا) . فلبست حزاما عريضا .

من الجلد يا سيدي القاضي .

وشدت بطنها جيدا لتستر العار . أؤكد لكم انها مجنونة ، وحمقاء .

(البذرة لا تموت)

أيحق لها ان تفعل ؟ الم تكفها جريمة واحدة ؟

شوهتني اللعينة .

هي المذنبة ، أنا حملت وزر الجريمة . بقانونكم شيء كهذا ؟!

(الاباء يأكلون الحصرم ، والابناء يضرسون)

✶✶✶

... والابناء يضرسون ؟! هه ..

لا . لقد تغير الامر . « من يزرع يحصد » . لقد حصدا ثمرة مـــا زرعاه . هو القانون الطبيعي . من منا يجرؤ على الاعتراض ؟

✶✶✶

لم اقتل ، شعي آخر قديم ، حبيس في صدري منذ ان وعيت ، هو الذي رفع ذراعي وكان يضغط علي .

اقسم لك يا سيدي انني لم اكن حرا . كل شيء رتب على هذه الصورة، بطريقة محكمة .. لا فرار منها ولا محيد .

دع الماضي . من جديد رأيتها في ذراعيه .

قتلتهما ...

ـ ... ؟

عجيب !!

ما دخلكم بذلك ؟ من اعطاكم حق الحكم علي ؟ حق التدخل .. حق اقامة الموازين ؟! هذه مسألة شخصية بيني وبينهما . لماذا لم تتدخلوا من قبل؟ لماذا لم تمنعوها من الانزلاق ؟

.. قتلتهما ،

القانون والاخلاق ، والعقاب وحبل المشنقة .. لغو فارغ ، مجـــرد كـــــلام !!

من يستطيع ان يمنع نفسه عند وقوع الامر ؟ هل تظنون انـــــي فكرت مثل هذا التفكير ، او حسبت حسابا لمثل هذه الامور ؟

عندما يرتكب الانسان جريمة ، ويكون مدفوعـــــا اليها ، أقـــول: « مدفوعا » .. ترى هل يكون له مثل هذا التفكير المنظم ؟

لا يا سيدي . اذا قيل لك ان المجرم يكون بوعيه خلال الجريمـــة، فلا تصدق . لقد ارتكبت جريمتي بالسهولة التي تشعل بها لفافة .

كنت اعمى عندما اقترفتها . شيئا واحدا رأيت : العبد الفقير الماثل امامكم ، قميئا ، ذليلا ، يذوب من الخجل والعار .. والتلاميذ فـــي المدرسة يشيرون اليه بأصابعهم ويتغامزون . وجمـــــعا مـن الاولاد يصفقون وراءه .. واصواتهم تخترق اذني : احمد .. احمد ..

هذا الذي رأيت !!

أيزعجكم ان اتبسط قليلا في الحديث ؟

لحظة من فضلكم لاستعيد الحوادث . (الخيطان مشتبكة في رأسي)

✶✶✶

نعم .. فتحت الباب فرأيتهما معا ..

ـ ... ؟

ايه !! عجيب ؟ أقول لك : « معا » . لماذا لا تصدق ؟

... متعانقين !!

عند ذلك ، .. ؟ هه ، هه ..

دقت الشواكيش في الرأس ، فتقوض واندفق الماء الحبيس .

✶✶✶

يا حضرات القضاة ..

فرق بعيد بين ان يكون الانسان « في » الشيء ، وبين ان يكـــون « خارج » الشيء . انتم الان خارج الامر .

سوف تحكمون علي ، كما لو انني كنت مثلكم حينما اقترفت الجريمة. وهذا اخطأ شنيع لا احب لكم ان تقعوا فيه .

. . . . .

لا تحملقوا كثيرا بوجهي يا مجانين . ما دخلكم بالامر ؟ هذه مسألـة شخصية بيني وبينها .. بيني وبين الله .

(ابرة الميزان تميل)

هه .. هه .. ها ...

كانت ... (والخبر في ضمير الرجل)

ع تابع لي س .

درعا ـ **محمد حيدر**

من « جمعية الادباء العرب »